

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الرابعة - العدد الخامس عشر - خريف ١٣٩٣ ش / أيلول ٢٠١٤ م

ص ١٣٠ - ١١٣

الحرية في أشعار يوسف الخال

حسن گودرزی لمراسکی *

سید علی مفتخرزاده **

أيوب حیدری ***

الملخص

تعتبر الحرية من أعظم القيم الإنسانية وهي إحدى الأدوات التي تُتيح للفرد استمرارية الحياة والتطور، فلماذا كانت الشعوب تطمح إليها دوماً. إن كلمة الحرية لها جذورٌ تتعمق في تاريخ البشرية، وقد ظهر مفهوم الحرية بمذلولات منها؛ المطالبة بالعدالة، والبحث عن الحقيقة، والترعة إلى الكمال، والتركيز على نمو الكيان الإنساني. قد تجلّت الحرية في آداب الأمم بصُورٍ متنوعة. أما الحرية في الأدب العربي المعاصر فإنها قد تَمَّ تداولها بين الأوساط الأدبية بأشكالٍ مختلفة، خاصةً قد تجلّت في ثوب ما يُطلق عليه الحرية الوجودية والتي تركزُ على وعى الإنسان وفكره.

تسعى هذه المقالة إلى أن تتناول رؤى الشاعر المعاصر السوري، يوسف الخال، عبر ما قرضه من القصائد، فقامت بتحليلها مرتكزة في ذلك على ثلاثة محاور أساسية: الحرية السياسية، والحرية الاجتماعية، والحرية الوجودية؛ وذلك لأن الشاعر قد ضاق ذرعاً من ضيم الصهاينة حيث يعتقد أن الحرية لا تتحقق إلا بالمثابرة، والكفاح، والتضحية. ويرى أن الحرية الاجتماعية هي استتباب الحرية على أرض الواقع لكي تمهد الطريق لتواجد الشعب في المجالات المتنوعة.

كما أن الشاعر وجوديٌّ يشغله شأن الإنسان وهو اجسسه؛ فالإنسان لبنة يبني عليها أفكاره ورؤاه، ويعتقد أن الحرية طريقٌ للوصول إلى الحقيقة، كما يرى أن التعقل أهمُّ أساس لتحقيق الحرية، ويتخذ الشاعر منه مركباً للوصول إلى الحرية الحقيقية. الكلمات الدليلية: يوسف الخال، الحرية السياسية، الحرية الاجتماعية، الحرية الوجودية.

h.goodarzi@umz.ac.ir

*. أستاذ مساعد بجامعة مازندران، بابلسر، إيران.

** طالب مرحلة الدكتوراه بجامعة الشهيد بهشتي في طهران، إيران.

*** طالب مرحلة الماجستير بجامعة مازندران، بابلسر، إيران.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصري

تاريخ القبول: ١٤/٨/١٣٩٣ ش

تاريخ الوصول: ١٧/١/١٣٩٣ ش

المقدمة

هناك مفاهيمُ يواجهها الإنسانُ عبرَ حياته ويبدلُ مجهوداً للوصول إليها، والحرية إحدى تلك المفاهيم والقيم التي وهبها اللهُ سبحانه وتعالى للإنسان. قد أثارت الحرية عبر التاريخ جدلاً وشغلت بالَ المفكرين، كما كانت كلمة الحرية منذ القدم مجالاً ذا خطر لتحدى الآراء بين أصحاب الرأي، والمذاهب الفكرية المختلفة تدبّرت فيها وقامت بالتنظير حولها، وإثر ذلك سَطَّرَ الكُتَّابُ وأصحاب الرأي في مجال الفكر حول الحرية وأسهبوا في كتاباتهم. إنَّ دندنة أغنية الحرية أمرٌ فطري بحيث ترتاح إلى أنغامها القلوب؛ فلهذا، علينا أن نربط نشأتها بزمان بدأ الإنسان يتعرّف فيه على ذاته وكيانه. ففي قصة خلق آدم، ابتداءً وعى الإنسان بخيارٍ انتهى إلى عقابه وطرده من الجنة، ليستقرّ بعد ذلك على هذه الأرض، وهذا البرعم المتفتح للحرية؛ سُمِّيَ العصيان. (كاتوزيان، ١٣٨١ش: ١٨٢)

إنَّ الحرية مبدأ مقدس، ولها مفاهيم وتعريف متنوعة؛ يقول الإمام على (ع) مخاطباً ابنه الكريم: «ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك اللهُ حُرّاً.» (نهج البلاغة، ١٣٧٩ش، الرسالة ٣١)

إنَّ كلمة الحرية أمرٌ وصفى، ولكي نستوعب مفهومها يتطلّب أن نلّم بأصل الحرية أو نسأل أنفسنا بم تتعلق الحرية؟ يقول جون ستيوارت ميل، الحكيم البريطاني في القرن التاسع عشر حول الحرية: «الحرية التي تستحق أن يُطلق عليها الحرية؛ هي التي نحسّ فيها بأننا أحرار وبأننا نبحت عن صلاحنا بالطريق الذي نراه صواباً، دون أن نحرم الآخرين من حُرّيّتهم، دون أن نكون حَجَرٍ عثر في طريقهم، فكل فرد يحافظ بنفسه على سلامته.» (صناعي، ١٣٥٤ش: ٣٢١) ولكن، عندما يُساق الحديث حول الحرية في آداب الأمم، يُقصد بها الحرية الوجودية والتي تقوم دعائمها على الفلسفة الوجودية. ففي هذا النوع من الأدب يتمكن الأديب أو الشاعر من أن يعلن عن موقفه بصورة كاملة حول ما يدور في عصره؛ لأنَّ المبادئ المجردة لا قيمة لها إلا إذا ارتبطت بالجوانب الاجتماعية وتمَّ تخصيصها إلى موقف خاص، كما أن وجود الأديب لا يتحقق بإمامه على الموقف فحسب بل يتطلب أن يكون الأديب ملتزماً قبل كل شيء، وأن يكون هذا

الالتزام في خِصَمِّ الصراع الذي خلقته شؤُونُ عصره، وبالتالي، هذه الأمور تُشير القلقَ والألم والأمل، وفي الواقع يهدف الأدب إلى أن يصوّر واقع الحياة، فالوجودية حقيقةٌ ظناً منها وليست قيمةً. (ميرقادري، ١٣٨٥ش: ١١٩)

إذا أردنا البحث عن أسماء جنحت إلى بثّ مفهوم الحرية في الشعر فعلينا أن نذكر هاينريش هاينه، الذي ولد سنة ١٧٩٧م في دوسلدورف الألمانية. يُعتبرُ هاينه من أبرز الوجوه الأدبية التي دعت إلى الحرية وناضلت لأجلها. (مبشر، ١٣٥٨ش: ٢٨)

أما الحرية في الأدب العربي المعاصر فإنّها قد تمّ تداولها بين الأوساط الأدبية بأشكال مختلفة منها: الحرية السياسية والاجتماعية؛ حيث قد تجلّت خاصةً في ثوب ما يطلق عليه الحريةُ الوجودية والتي تركز على وعى الإنسان وفكره.

قد ذهب المفكرون في تعاملهم مع مفهوم الحرية إلى مذهبين مختلفين؛ فئة منهم تعتقد بأن الحرية هي سيادة العقل والفكر، وفئة أخرى ترى أن الحرية هي السلطة والقوة. أما يوسف الخال فهو ينزع إلى العقل في تفسيره لمفهوم الحرية، ويرى أن الإنسان عليه أن يحقق الحرية الداخلية في نفسه؛ فلا ينال الإنسان هذه الحرية إلا إذا أقهر وأجّم بسلطان العقل أهواءه؛ لأنّ التحررَ من قيود النفس تتبعه الحرية الاجتماعية والسياسية.

إنّ شاعرنا عاش عصرًا كان الشعبُ فيه يكتوى بويلات الحروب المتتالية وتتجرع كأسَ الضيم بمرارة؛ فضاقت ذرعاً من تلك الظروف القاسية وحاولت البحث عن الحرية بجانبها الفردى والاجتماعى.

لهذا تطّلع يوسف الخال كغيره من أبناء الشعب إلى الحرية، وبصفته شاعراً، قام ببثّ وبتصوير تلك الأمنية في أشعاره، خاصةً فيما قرّضه من القصائد في بداياته الشعرية.

هذه المقالة تسعى أن تدرس مفهوم الحرية من منظور يوسف الخال وتجيّب عن هذا الاستفسار، وهو كيف تتجلّى الحرية في رؤى يوسف الخال؟

فرضية البحث

نظراً إلى سؤال بحثنا الرئيس، تركز فرضيتنا على أن الحرية تتجلّى بصُور مختلفة في رؤية الشاعر؛ منها؛ الحرية السياسية، الاجتماعية والوجودية، كما يعوّل الشاعر على

العقل أكثر منه إلى غيره، ويعتقد إذا كان العقل مرشداً سيصل الإنسان إلى غيره، ويعتقد إذا كان العقل مرشداً سيصل الإنسان إلى الحرية الحقيقية.

خلفية البحث

هناك دراسات تطرقت إلى يوسف الخال، وشعره، وأفكاره، منها:

١. دراسة حياة وأعمال يوسف الخال؛ طاووس اسفنديار، ١٣٨٨ش، طهران.

تعرضت هذه الرسالة إلى حياة يوسف الخال وإلى أهم إنجازاتها الأدبية، أي مجلة الشعر ووجهات نظره حول الأدب كما درست مضامينه الشعرية.

٢. اللقاء مع يوسف الخال؛ ترجمه حسن حسيني، مجلة الكيان، العدد الأول، تشرين الأول، ١٤١٣ق.

دار هذا اللقاء باستفسارات طرحها جُرج طراد على الشاعر وذلك في أجواء حميمة وصريحة دون المجاملة وكانت معظم تلك الأسئلة والاستفسارات حول مجلة الشعر، وطبيعة انطلاقتها، وإغلاقها.

٣. يوسف الخال، أدونيس، وقصة مجلة الشعر؛ محمد جواهر كلام، ١٣٨٦ش. تتحدث هذه المقالة عن يوسف الخال، وأدونيس، وعن طبيعته انطلاقاً من مجلة الشعر وأهدافها وإنجازاتها؛ ولكن لم تكن هناك مقالة تدرس مفهوم الحرية من منظور يوسف الخال، فلذلك قامت هذه المقالة بدراسة ذلك المفهوم في رؤى الشاعر.

يوسف الخال

ولد يوسف الخال؛ الشاعر، والمترجم، والصحفي، والناقد المعاصر العربي سنة ١٩١٧م في إحدى قرى من الأحياء المسيحية في وادي قزاري "عمار الحصن" شمالي سورية، تقع عمار الحصن على سفح جبل يقرب من قلعة تُعرف باسم حصن الأكراد التي بناها صليبيون. (كامبل، ١٩٩٦ش: ١/٥٢٥؛ الرئيس، ١٩٩٦ش: ١٩٩).

قد بدأ الخال حياته الأدبية سنة ١٩٣٦م بكتابة رواية (سلماي)، وتعتبر هذه الرواية باكورة أعماله والتي تشهد على نزعتة في إصلاح المجتمع والدفاع عنه. (السلسي،

٢٠٠٤م: ٤١) وبعد أن أكبَّ على الأدب وذاع صيته، انتقل إلى نيويورك للعمل في الأمانة العامة لمنظمة الأمم المتحدة في سنة ١٩٤٨م إلى ١٩٥٢م، وتعاون الخال مع ١٤ مجلة، فكانت "مجلة الشعر" وليدة تجارب حصل عليها يوسف الخال عبر تلك السنين بانخراطه في العمل الصحفي وانكبابه على الأدب، واستطاعت هذه المجلة وفي فترة قصيرة أن تصبح من أبرز ومن أهمّ المجلات في الأقطار العربية.

كان يوسف الخال من أبرز دعاة الحداثة في الشعر ومن بدعه الخاصة دعوته إلى استخدام اللغة العامية في الشعر الحديث. (اسوار، ١٣٨١ش: ٢٧٧)

وتدور معظم اشعاره حول الإنسان وما يرتبط به من ألم وفرح ومن ذنب وتوبة، من حرية وعبودية، ومن ذلّ وشرف وحياة وموت. ويرى أن كل تجربة خلت من الإنسان وإرادته فإنها مصطنعة ولا قيمة لها وعندئذ يلفظها الشعر الخالد.

شعر يوسف الخال يحمل في مواضيعه ومضامينه هواجس الفكر الإنساني في العصر. ويتميز نتاجه الشعري في ديوان الشعر العربي المعاصر بما يحمله من لحن معنوي عميق وموسيقى هادئ تتقابلان مع الألحان الصاخبة المستفزة والخطابية السياسية آنذاك. (السالسي، ٢٠٠٤ش: ١٤٥)

ومن خصائص شعره هو التناسق الفكري والنزعة العقلية، ومما يميز شعره نزوعه إلى توظيف الرموز، محتدياً فيه سعيد عقل زعيم الرمزيين في لبنان. إلى جانب ذلك، نرى احتفاله بترجمة الشعر العالمي المعاصر، وقد نالت الشهرة ترجماته لإليوت ولعدرا باوند، ولروبرت فروست، ولكارل سنديزغ. وهو شاعر، يقول عبدالله العذري في تكريمه وتأبينه: «أننى أعتبره أباً للشعر الحديث.» (المصدر نفسه: ٤١)

الحرية ومظاهرها من منظور يوسف الخال

يرى يوسف الخال بأن الإنسان هو المسألة الأساسية لأنه الجوهر ويجب أن يحيا حرّاً. (المصدر نفسه: ٤١) ولهذا تركز أفكاره ورؤاه على الحرية، وتتجلى الحرية في أشعاره بصور مختلفة منها، الحرية الوجودية.

١- الحرية السياسية

تعنى الحرية السياسية تمكّن الفرد من ممارسة حياته السياسية والاجتماعية، وذلك عبر اختيار حُكّامه وسلطانة السياسى، واستطاعته فى أن يشغل المناصب العامة والسياسية والاجتماعية، كما تعنى التعبير عن آرائه وأفكاره بكل حرية فى الأوساط السياسية والاجتماعية. (طباطبائى، ١٣٧٠ش: ١٠)

«بصورة عامة، تشير الحرية السياسية إلى دور الناس فى الحياة السياسية، ويُقصد بها جميع تلك الحريات التى يتمتع بها الفرد فى إطار المجتمع وأمام الدولة، لهذا، تدخل حرية التعبير، وحرية الصحافة، وحرية النقد، والاحتجاج، وغيرها فى خانة الحريات السياسية.» (لك زابى، ١٣٨١ش: ١٩٥)

يقول يوسف الخال حول الحرية السياسية: «إن الحرية السياسية مسألة فهمناها فى معظم الأحيان ولكننا أخطأنا مراراً فى توظيف الأدوات والآليات التى تُحقق الحرية.» (السالى، ٢٠٠٤م: ٤٤)

تُعد الحرية السياسية من منظور الشاعر وسيلة، وليست هدفاً؛ وسيلة تُهدف إلى تبلور شخصية المواطن أمام الناس والعكس صحيح.

إنه دائماً يتحدث عن الحرية، فالشاعر يُضحى بكل نفيس فى طريق الحرية وإحقاقها، وإن تطلّب الأمر سيفدى روحه لأجله:

«أنا كلُّ ما أدعى

حملت صليبي معى

يا لىالى اسمعى

سأخلق فجراً جديداً

إذا الفجرُ لم يطلع» (الخال، ١٩٧٩م: ١٥-١٦)

يخاطب الشاعر فى هذه الأشطر جهاز الدولة والسلطات، كما جاءت كلمة صليب لتعبّر عن تأهب الشاعر للموت؛ فهو يحمل الصليب على أكتافه دائماً غير مكترث بالموت الذى يحدق به، فيعلن الشاعر عن استعداده التام للموت فى سبيل الحرية وهذا برهان دامغ على نزوعه إلى الحرية والتغنى لها.

ويرى الخال بأن ثمن الحرية غالٍ، وإذا شعب أراد الحرية فعليه أن يشور، ويعزّز حريته بالفرايين وبالشهداء الذين يفديهم في طريق الحرية.

«سَمَرُوا كُلَّ مَطْرَحٍ بِالضْحَايَا

وَالضْحَايَا عَلَى الْمَدَى أَحْيَاءُ» (الخال، ١٩٧٩م: ٩١)

وفي مكان آخر من القصيدة يذكر الشهداء الذين سقطوا في سبيل إحقاق الحرية، رافضين ضيم الظالم، لينوروا بدمائهم ليالي الجور المحالكة:

«فَالضْحَايَا بِاسْمِ الْكَنِيسَةِ وَالِدِينِ

تَرَامَتْ مَخْنُوقَةَ الْأَنْفَاسِ

تَحْمَلُ النُّورَ فِي اللَّيَالِ الدَّوَاجِي

وَتَصَبُّ الزِّيُوتَ فِي النَّبْرَاسِ» (المصدر نفسه: ١١٠)

يرى الشاعر أنّ تروى دماء الشهداء دوحه الحرية حيث تضمن استمرارية الحرية. كما ينبش الشاعر ذاكرة التأريخ ليضع أمامنا مشاهد الصراع لأجل الحرية، ويصرّح بأن جبروت السلطان لن يدوم إلى الأبد وسيحين يوماً يُخلع عن عرشه؛ إذن، يُحذّر حكام العرب ألاّ يظلموا شعبهم وألاّ يغتروا بسلطنتهم، فإنها ليست بخالدة:

«أَيُّ مَلِكٍ كَذَلِكَ بَيْنِي عَلَى الْقُوَّةِ

يَبْقَى فَلَا يَزُولُ وَيَبْلَى

أَيُّنَ مَجْدُ الْعَرَبَانِ بَعْدَ ازْدِهَارِ

حَطَّ فِي قِمَّةِ الْجَلَالِ وَحَلَا؟

أَيُّنَ جَنْكِيْزُ فَاتِحُ الشَّرْقِ وَالْعَرَبِ

نَذِيرُ الْهَلَاكِ أُنَى أَطْلَا؟» (المصدر نفسه: ١٠٤)

لم يتجاهل الشاعر الانتفاضة الفلسطينية المسلحة، وردة فعل كيان الغاصب على الأراضي اللبنانية، فهذا لم يقصّر في كتاباته عن النظر إليها، كما تحدث وسّط مقالات حول بعض الحقائق، خاصة فيما يتعلق بقوم يهود، معولاً في ذلك على التأريخ، لأنّ التأريخ لا يكذب. وتطرق فيها إلى تبعات حرب الكيان الصهيوني مع العرب وأثرها

على مصير العرب. (السالسي، ٢٠٠٤م: ١٠٢)

إنَّ الشاعر شهد ظلم حكام العرب تجاه شعوبهم وخوفهم من الكيان الصهيوني الغاشم. يرفض يوسف الخال، الكيان الغاصب وكان يثير فيه الحزنَ مصانعةً حكام العرب مع الصهاينة، كما يُشبِّه الشاعرُ الصهاينةَ بالظلام؛ لأنَّ الظلام يرمز إلى الضيم والجور، وذلك عندما يصرخ الشاعر:

«أمحت شعلةً، فَسَادَ الظلام

في بلادى وطأطأ الفكر عيا

يحمل القيد في يديه ويمشى

في عبودية الظلال شقياً» (الخال، ١٩٧٩م: ١١٥)

إنَّ المواهب الإنسانية والفردية لا ترى النورَ إلا إذا هيئت له فضاءات رحبة من الحرية، فالأجواء المغلقة التي تهيمن عليها الدكتاتورية والتي فيها معالم الكتب، سمحت لخلق أرضية تنشأ وتبرز فيها المواهب والإبداعات. ففي الجو الاستبدادي الذي يسيطر على المجتمع، يرتفع فيه شأن المداهنين ويذلُّ الأحرار والمفكرون؛ لأنَّ الظروف الراهنة لا تسمح المجال والمطارحة لأهل الخير وللمصلحين. (لك زابي، ١٣٨١ش: ١٩٥)

فالشاعر على الرغم من الصعوبة التي يواجهها من ضيم الحكام، مع هذا لا يفقد أمله ويبقى متفائلاً بالأيام الآتية، وواثق من أنه سيدوق طعم الحرية الحقيقية، وسينتهي صراعه مع الشر ويعيش بالحرية التامة للأبد، كما يرى أن الناس سينالون الحرية التامة في الغد الآتي:

«وغداً عندما تعود السيوف

القضب منصوراً إلى الأغماء

أترى ينتهي صراعى مع الشر

فأحيا حُرّاً إلى الآباد» (الخال، ١٩٧٩م: ١١١)

٢- الحرية الاجتماعية

يُعرِّف الأستاذ مطهرى الحرية الاجتماعية في قوله: «على الإنسان أن يتمتع بالحرية بين سائر أبناء المجتمع، وأن لا يكون أحد حجرة عثرٍ على طريق نموه وتعالیه، وأن لا يتمّ

حبسه فيتوقف نشاطه، ولا يستغله الآخرون ولا يستعدوه؛ أيجب أن لا يستغل الآخرون جميع قدرات الإنسان الفكرية والجسمية لخدمة مصالحهم الفردية.» (مطهرى، ١٣٦١ش: ١٤)

تتشكل الحرية الاجتماعية بين البشر والفئات الإنسانية عبر سير العلمية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، ولا ينطلى ما للحرية من علاقة وثيقة مع المؤسسة السياسية في المجتمع، وإنه مع نشوء واستقرار الحرية تتوفر أرضية لتعاون الشعب في مختلف المجالات. تشتمل الحرية الاجتماعية على الحرية الثقافية والسياسية والأخلاقية والسلوكية، والحرية الثقافية تدرج فيها حريات أخرى، منها: حرية الفكر، وحرية العقائد، وحرية التعبير والقلم. (فرزين راد، ١٣٨١ش: ٩٤)

يُعدُّ يوسف الخال شاعراً ثورياً ينزع إلى الحرية، ويدعو الشعب إلى الثورة والتمرد على التخلف الفكري والثقافي، وتبلى هذه الفكرة والدعوة بصورة جلية في مجموعته الشعرية (الحرية)، إنه لا يرى أن لبنان خليق بالتقدم فحسب بل يحسب أن جميع الدول العربية جدير بالتقدم والتطور، ويعتقد بأن الكساد الفكري ألقى بظلاله على العالم العربي في مضمار معرفة وإعمار أمر الدنيا والدين واللغة والأدب. (السالسي، ٢٠٠٤م: ١٠١) ويعود هذا الأمر إلى غياب الحرية الاجتماعية والسياسية، كما حدا التخلف وتباهى العقل العربي إلى تضليل الشعوب العربية. إنَّ الشاعر متحمس للإصلاح الاجتماعي بحيث يُشدُّ على هذا الأمر، ولم تستطع التطورات أن تحول دون رغبته في الإصلاح، فتراه يتطرق في بعض مقالاته التي نشرها في "صوت المرأة" إلى الجوانب الحضارية المتنوعة، منها: غياب التناغم بين الروح والجسم. (المصدر نفسه: ٤٥)

يعتقد الشاعر أن بلاده كان يتربّع على عرش العزّة والفخر ثقافياً، وأدبياً، واجتماعياً، وبيتٌ في معظم قصائده هذه الفكرة ويشير إليها، كما أنشد:

«يا بلادي حضنت، من قبل، أمجاداً

وشُيِّدت في بناء الحضارة

تغمرين الأمداء حباً وإيماناً

وتعلين للجال منارة» (الخال، ١٩٧٩م: ١١٣)

عندما يصبح الفكر مُكَبَّلًا، ولا يتمكن من أن يتلقّى التوجيه الذى يليق به؛ عندئذ يتمخض عنه الضلالُ والانحطاطُ للشعب وللحكومة على السواء. وهذا أمر استوعبه الشاعر، فمن منظور الشاعر، كان لبنان من قبلُ في ذروة المجد، ولكن هذا المجد غاب ليحلَّ محله التخلفُ والعقم الفكرى والعقلى، لينتهى بها الأمر إلى التردى فى النكد والتخلف، وفى الواقع، يخاطب الشاعر أبناء جلدته ليستفيقوا من سباتهم وينتبهوا بما يحصل حولهم:

«لبنان شأنك أن تبالى

جَنَحَتْ خطاك إلى الضلال

ما لي أراك، تكاد بعدَ اليوم

تغرق فى الرِّمال» (المصدر نفسه: ٨١)

لا شك أن الظروف السياسية والاجتماعية التى تحكم على مجتمع ما، تعتبر من أهمّ المكونات فى جميع المجتمعات الإنسانية، وفى الواقع، تشكّل الثقافة هويةَ المجتمع وكيانه؛ أياً كان ذلك المجتمع، وإذا خَلَا مجتمعٌ من الثقافة سيفقد هويته وبالتالي، يتجاهل المجتمع أمر الشعب ومصيره:

«ججدتُ بك الأبناء لا

أيدٍ تمتدّ ولا مبالى

فكأنما خلع الظلام

عليك أردية الوبال

ولأنت، قبل اليوم،

النور فى دَرَبِ الليالى» (المصدر نفسه: ٨١-٨٢)

فإذا رافق الشعور بالمسؤولية أبناءَ المجتمع؛ سيؤدّى ذلك إلى بقائه ويخلق فيهم شعور الاستغناء عن غيرهم من المجتمعات. يقول الأستاذ مطهرى فى هذا الإطار: «إنَّ الشعب الذى يمتلك فلسفة وشخصية مستقلتين فى الحياة، لاتنهصر ولاتدوب فى غيرها من الشعوب.» (فرزين راد، ١٣٨١ش: ٩٩)

من منظور الشاعر لاتتحقق الحرية ببساطة، فالحرية تخلقها التضحية والعناء. يُعوّل

الشاعر على الشعب في رؤيته حيال الحرية، ويرى أن الحرية لا تتحقق على أرض الواقع، وذلك إذا تجاهل شعبُ قضية الحرية وتخلَّى عن أهداف البلاد، وبالتالي وإثر ذلك سيعمّ الضيم والجور على مواطنهم.

إنَّ الشاعر على الرغم من العراقيل التي يواجهها في مسيرة إصلاح المجتمع؛ مع ذلك، يبقى متفائلاً ويعتبر لبنان مهداً للتغيير والتطور في العقل والفكر، كما يعتقد أن تقدم العالم العربي مرهون بتقدم لبنان وتطوره.

«لبنان يا بلدى الحبيب

إذا عبدتُك لا أعالى

أملُ العروبةِ في يديك

وإن تجاهلت الموالى» (الخال، ١٩٧٩م: ٨٣)

إنَّ يوسف الخال شاعر وطني حدا به حُبُّه للوطن إلى أن يصرخ عبوديته له، ويذهب أبعد من ذلك، حيث يعلن عن عبادته لتلك الأرض وهذا ممَّا يكشف عن حسِّه القومي. والشاعر يعتبر لبنان موطناً للحضارة، وللأدب، وللثقافة.

إذن، من منظور الشاعر؛ لا ترى الدول العربية وجه الحضارة، إلا إذا تقدّمت لبنان وسارت في درب الحضارة، كما يرى أن إحدى الطرق التي ترشد إلى الحرية، هي الاعتناء بالحرية الفردية والاجتماعية.

برهنت الأبيات السابقة على أن يوسف الخال شاعر ينزع إلى الحرية، ولا يعرف غير المثابرة والمجدّ طريقاً للوصول إليها، كما يشكو من تخلف الشعوب العربية. ولكن على الرغم من هذه الظروف المأساوية، يظل الشاعر متشبهاً بالأمل في أمر الإصلاح.

٣- الحرية الوجودية

تعتبر الوجودية أو فلسفة أصالة الوجود، ثورةً على جميع المذاهب الفلسفية الكلاسيكية؛ أيّاً كانت، وتُولى الوجودية اهتماماً واسعاً إلى كيان الإنسان أكثر من أى أمرٍ سواه. تعتقد هذه الفلسفة بأن جميع التيارات الفلسفية القديمة والحديثة قد ناقشت أموراً شتى منها: المعرفة وطبيعة نشوئها، وكيان الأشياء مستقلة عن الأفراد،

أو منح الحياة إلى الأشياء من قِبَل فهم الأفراد إليها، كما خضعت الوجود للدراسة بصورة مجردة، ولكنها تجاهلت في مناقشاتها ودراساتها الإنسان الحقيقي بلحمه ودمه. (مردانيونكده، ١٣٨١ش: ٢٨)

«يعتبر مؤرخو تأريخ الفلسفة، كى يركه غور، موسساً للوجودية ثم يذكرون اسمين من فلاسفة الغرب وهما "هيدغير" و"ياسبرس".» (دستغيب، ١٣٥٤ش: ٦)

تقوم دعائم الوجودية على أربعة محاور وهى: أصالة الوجود، والحرية، والالتزام، والقلق؛ وهذه الدراسة ستناقش إحدى محاور الوجودية؛ وهى الحرية. تركز الحرية الوجودية على فلسفة الوجود، فتسعى الوجودية، فى الحقيقة، إلى أن تستخرج النتائج التى تترتب على حالة متسقة دون أن تنكئ على واجب الوجود. (سارتر، ١٣٥٥ش: ٧٨)

«هذا المذهب يتخذ الحرية معياراً لتعالى الإنسان ولكل ما يرتبط بجوهر الإنسان والقيم الإنسانية، وتعتقد بأن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى خلق حُرّاً فى هذا العالم؛ أى إنّه لا يخضع لأى جبرٍ وفرضٍ من الخارج، وكما عبّر عنه القدامى أنه كائن يتمتع بالاختيار، أو مثلما يردّد البعض، كل كائن سوى الإنسان محكوم بالجبر؛ أى تؤثر عليه مجموعة من العلاقات السببية، ولكن الإنسان ليس مقهوراً من الخارج ولا تتحكم عليه أية علاقات سببية جبرية.» (مطهرى، ١٣٧٠ش: ٢٣٠-٢٣١)

إنّ الوجودية ترفع من شأن الإنسان بحيث تعدّه سيّد الكائنات، ولهذا يعتقدون بأن الإنسان يجب أن يكون حُرّاً، والحرية كانت مداراً أساسياً فى أفكار سارتر. (أحمدى، ١٣٨٤ش: ٢٢) يقول سارتر حول الحرية الوجودية: «عندما يصبح جميع أبناء العالم أحراراً عندئذٍ سأكون حُرّاً، وإن بقى فردٌ واحدٌ فى العالم مكتتبلاً وأسيراً، لن تكون هناك حرية عندئذ.» (سارتر، ١٣٥٥ش: ٦٨)

يمكننا أن نستلخص أهم ميزات ومبادئ الوجودية فيما يلى: الحرية، والفردية، والقلق، والنهضة، والاحتجاج، ومعرفة حالة الإنسان السيئة، والشعور بالهجران وبالغربة، والإيمان بالله، والإيمان بأسبقية الوجود على الماهية، والازدواجية الأساسية. (مردانى نوكنده، ١٣٨١ش: ٣٠-٣١) يقيم يوسف الخال للإنسانية قيمة عالية؛ فمن هذا

المنطلق، يعتبر الإنسان القضيةَ الرئيسيةَ لأن الإنسان جوهر وحينما نلفظ بالإنسان، نقصد العقل، والتفكير، ومحاصيلهما. (السالسي، ٢٠٠٤م: ٦١)

أحاط الظلامُ بالشاعر من كل جانب، ومع هذا إنه يمضى متّخذاً من العقل مركباً في طريقه، باحثاً عن الحقيقة، إذن لأبدُّ من العقل في هذا السبيل:

«أنا حرٌّ يا ربِّ، حرٌّ لي العقل

جناحٌ وذروة الحقِّ مرمرى

يا إلهي شدّد جناحي، وزدّه

قوة منك فهو غضٌّ» (الخال، ١٩٧٩م: ٩٨)

«تنقسم الوجودية إلى ثلاثة أقسام: ١- الوجودية الدينية التي تؤمن بالله وتبنى دعائمها على هذه العقيدة، والوجوه التي تمثل هذا القسم هم؛ كيركغور، مارتن بوبر، پاول تيليش. ٢- الوجودية الملحدة التي لا تؤمن بالله، وسارتر هو الرائد بهذا النوع. ٣- الوجودية غير الدينية وتهدف هذه الوجودية إلى تفسير وتبرير الوجود والعالم دون أن تُعوّل على عنصر الدين، وخير من يمثل هذا النوع هو مارتين هايدغر.» (كودرزي لمراسكي، ١٤٣٣م: ١١٩)

إنَّ يوسف الخال يؤمن بالله ويستمدّ قواه من ربّه ويلجّ على ذلك في مسيرة إحقاق الحرية الحقيقية، إلى جانب ذلك، هو شاعر وجودي وينتمي إلى مدرسة فكرية ترى أن الإنسان قد حكم عليه أن يخلق البشرية أبدأً دون التعويل على عون يستعين به، إذن، على الإنسان أن يحيى في ظلّ عقله ويبني البشرية. (سارتر، ١٣٥٥ش: ٣٧)

والشاعر كأقرانه من الوجوديين يؤمن بالفكرة تلك، ولا يرى للإنسان حياةً على الأرض إلا إذا استنجد بعقله في شؤون حياته. من منظور الشاعر، يُعتبر العقل سببياً أساسياً للوصول إلى الحرية، وأهم في ذلك يُهدد العقل الطريقَ للبلوغ إلى قمم الحق، وكما يقول لايبنيثس: «الحرية هي إثارة العقل.» (كرنستون، ١٣٥٤ش: ٣١)

«فإذا العقل سيّد، والأمانى

حُبالي بكلِّ حُبٍّ وخير» (الخال، ١٩٧٩م: ١٠٥)

ولكن الشاعر لا يعتبر التفكير، السبيلَ الوحيد لبلوغ المرء إلى الحرية بل نراه

يستنجد بربه حتى يملأ صدره حُباً لِينال الحرية والحقيقة:

«رَبُّ هَبْنِي مَحَبَّةً، فِيهَا أَدْرِكُ

حُرِّيَّتِي وَأَعْرِفُ نَفْسِي

أَنَا، إِنْ لَا أَحِبُّ، مَا نَفَعَ عَقْلِي

لخلاصي وباطل كل بأسى» (المصدر نفسه: ٩٩-١٠٠)

مع هذا، لم ينسَ الشاعر أنه سيظل عبداً لنفسه مهما حاول التخلص من ربقتها،

وسيقى الرعب يحدق به أينما اتَّجه وحيناً يفقد أمله فيرى الحرية سراياً وخيالاً:

«لا خلودٌ بعد الممات لنفسي

ومصيري مُغَلَّفٌ بِالظلام

كنت عبداً للعيش، للموت، للشر

وعبداً للخوف والآلام

أجهلُ الله، أجهلُ الحُبِّ والحقِّ

وحريَّتِي من الأوهام» (المصدر نفسه: ١-٣)

إنَّ الوجودية تتأمل الموت وذلك قبل أن تكبَّ على الحياة وتبحث عن طرق

لتحقيقها على الأرض؛ إذ أنها تحسّ وتلاحظ بأن الإنسان كائن كُتِبَ عليه الفناء.

(زمانى، ١٣٥٢ش: ٤٣)

إذن، إنَّ الشاعر يقتنى أثر الوجوديين في هذه الرؤية، فلا تشغل الحياةُ باله فحسب

بل يصبح الموتُ، والشرُّ، والألمُ، موضعَ اهتمامه. يقول الخال: إذا كنت عبداً لنفسك

وقضيت حياتك بين الرعب والخوف فلن تنال الحرية الحقيقية.

من منظور الشاعر، يتطلَّب الوصول إلى الحرية الحقيقية، معرفة الله والمحبة والحقيقة.

إنَّ الحرية هي المحور الأساسى الذى تدور حولها أفكارُ الشاعر، فكما أنَّ الوجودية

تنزع إلى الحرية وتتخذها محوراً لأفكارها؛ فإنَّ الشاعر يتخذ الحرية مركباً ليسير به

نحو الحرية والحقيقة، ومستعدُّ لأن يملأ الأرض من القرايين ويذرف دموعاً غزيرات في

دربه ذلك:

«أنا حُرٌّ يا ربَّ! حريَّتِي كُنْهِي

أرُود الجمالَ فجراً وفجراً

كلّ فجرٍ أرودُ أفرشُ الأرضِ

ضحايا، وأفجّرُ الدمعَ مجراً» (الخال، ١٩٧٩م: ٩٧)

وبما أن الحرية من السمات البارزة في المذهب الوجودي، فإن الشاعر قد استوعب هذا الموضوع، ويرى نفسه حُرّاً يبحث عن الحرية. فمن وجهة نظر الشاعر، تُعدّ الحرية ينبوعاً لكل شيء، والأحرار هم الذين يقومون بأمر تطوير المجتمع وتغييره:

«أنا حُرٌّ يا ربّ، ما أنت حُرٌّ؟

ما وجودي، تُرى إذا كنتُ عبداً

شيمة الحُرِّ أن يروضَ أحراراً

ويأبى إلا التحرر مبدأ» (المصدر نفسه: ١٩٧)

هناك علاقة وثيقة بين الإنسان، والحرية، والوجودية. تهدف الوجودية إلى أن يعلو من شأن الفرد، وهي الفلسفة الوحيدة التي تمنح الكفاءة للفرد، كما أنها لا تنتظر إلى الإنسان نظرة شيئية. (سارتر، ١٣٥٥ش: ٥٤)

يذهب الخال إلى أن الإنسان يستحق الحرية فإن كان عبداً صار في عداد الأموات لا وجود له. يقول سقراط: «الحرية هي أن يكون الإنسان في خدمة الخير ويروضها دائماً فمستوى خدمته يحدّد نطاق حرية الإنسان.» (روزنتال، ١٣٧٩ش: ١٥٦)

إذن، فإن كان التفكير الحر في خدمة الخير أدّى ذلك إلى تطور المجتمع وتغييره، وبما أن الشاعر يرى بأن الغاية القصوى للحرية تتجلى في إحقاق الحقيقة، فلماذا إن تباهت ملامح الحقيقة يستاء ويتضجر، فما بالك إن تمّ تجاهل الإنسان عن الحق والحقيقة؛ فيشكو الشاعر في هذه الحالة في المقطع التالي:

«ويح نفسي، أتعس الحق

في الدنيا

فكم مرّة يُباع ويُشترى

كلُّ شيءٍ لدى العبيد الحلال

غير شيء: قول الحقيقة جهراً» (الخال، ١٩٧٩م: ١٠١)

يؤكد الوجوديون على وجود الإنسان، ويوسف الخال هو الآخر الذي يقيم للإنسان ووجوده وزناً وقيمة؛ إذ إنَّ الحق جزء من حياة الإنسان، وعلى هذا الأساس هناك علاقة وثيقة بين الحق والوجودية، فالشاعر يشكو من تجاهل الحق في هذه الأبيات، وقد برهنت الأبيات بأن يوسف الخال أديب وجودي يتخذ الحرية مركباً للوصول إلى الحقيقة.

من منظور يوسف الخال، إنَّ الإنسان لا يكون حراً إلا إذا ألمَّ بالحق وعرفه وخشع له، كما يتخذ الخال، الحرية الفردية مركباً للوصول إلى ذات المطلق، وأيضاً لخلق مجتمع حديث، فهذا دعا إلى التحرر من كافة الأساليب القديمة في الشعر التراثي والتي فرضت على الشاعر الحديث وعلى موهبته وذوقه الشخصي، كما يؤكد على الثورة في الشعر والتمتع بالحرية فيه. (السالسي، ٢٠٠٤م: ٤٤)

النتائج

- خضعت أفكار يوسف الخال، في هذا البحث، للدراسة وذلك في ثلاثة محاور: الحرية السياسية، والحرية الاجتماعية، والحرية الوجودية.
- الحرية السياسية: وهي التصدي للحكومة الجائرة ورفضها، خاصة رفض الكيان الصهيوني الغاشم؛ فعلى المرء أن يتحمل الصعاب ويضحى بنفسه في هذا الدرب.
- الحرية الاجتماعية: وهي أن على الإنسان أن يستوعب هويته الفردية وكيانه، وألا يتجاهل مصير شعبه بل عليه أن يحسّ بالمسؤولية حيال ذلك.
- الحرية الوجودية: تميل إلى أن تعلق من شأن الفرد وتقييم له وزناً وقيمة؛ فتشكّل الحرية نواة أفكار هذا المذهب، وترى أن العقل والمحبة أدواتان يستعين المرء بهما للوصول إلى الحرية.
- يُعتبر يوسف الخال أديبا بارزا يقيم للحرية قيمة بالغة في حياة الإنسان ويعتبرها حقاً طبيعياً للفرد، كما أنه أديب متحرر يطلب للإنسان حرية داخلية، فمن منظور الشاعر عندما تتحقق الحرية الداخلية في كيان الفرد، يؤدي ذلك إلى تحرر المجتمع وإلى نمو قدرات الإنسان في سيره إلى الكمال.

المصادر والمراجع

نهج البلاغة.

احمدى، بابك. (١٣٨٤ش). سارتر كه مينوشت. تهران: مركز. أسوار، موسى. (١٣٨١ش). از سرود باران تا مزامير گل سرخ؛ پيشگامان شعر امروز عرب. تهران: انتشارات سخن.

الخال، يوسف. (١٩٧٩م). الأعمال الشعرية الكاملة. بيروت: دارالعوة. دستغيب، عبدالعلي. (١٣٥٤ش). فلسفه‌هاى اگزيستانسياليسم. تهران: بامداد. روزنتال، فرانس. (١٣٧٩ش). مفهوم آزادی از دیدگاه مسلمانان. ترجمه منصور ميراحمدى. قم: حوزه علميه.

الريس، رياض نجيب. (١٩٩٦م). ثلاثة شعراء وصحافي (رسائل جبرا ابراهيم جبرا، يوسف الخال، توفيق صايغ إلى رياض نجيب الريس). لندن: رياض الريس للكتب والنشر. زمانى، محمدرضا. (١٣٥٢ش). برسى روابط جامعه با اگزيستانسياليسم. تهران: كاشانى. سارتر، ژان پل. (١٣٥٥ش). اگزيستانسياليسم واصالت بشر. ترجمه مصطفى رحيمي. تهران: مرواريد.

السالى، جاك أماتاييس. (٢٠٠٤م). يوسف الخال ومجلته شعر. بيروت: دارالنشر. صناعى، محمود. (١٣٥٤ش). آزادی وتربيت. تهران: لانا. طباطبائى مؤمنى، منوچهر. (١٣٧٠ش). آزادی‌هاى عمومى وحقوق بشر. تهران: لانا. فرزين‌راد، رؤيا. (١٣٨١ش). «آزادی‌هاى اجتماعى از دیدگاه اسلام». العدد ٤، صص ٩٤-١١٣. كاتوزيان، ناصر. (١٣٨١ش). آزادی اندیشه و بيان. تهران: دانشكده حقوق وعلوم سياسى دانشگاه تهران.

كاميل اليسوعى، روبرت. (١٩٩٦م). أعلام الأدب العربى المعاصر سير وسيرة ذاتية. المجلد الأول والثانية. بيروت: المعهد الألماني للأبحاث الشرقية.

كرنستون، موريس. (١٣٥٤ش). تحليلى نوين از آزادی. ترجمه جلال الدين اعلم. تهران: سپهر. گودرزى لمراسكى، حسن. (١٤٣٣ش). «الوجودية فى شعر صلاح عبدالصبور». مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة الثامنة. العدد ١٥، صص ١١١-١٢٧.

لكزايى، شريف. (١٣٨١ش). «آيه الله مطهرى و آزادی‌هاى سياسى». مجله علوم سياسى. العدد ١٧، صص ١٩١-٢١٢.

مبشر، حشمت الله. (١٣٥٨ش). چشم‌انداز آزادی در شعر جهان. تهران: افشين. مردانى نوكنده. محمدحسين. (١٣٨١ش). «مبانى اگزيستانسياليسم». مجله كيهان فرهنگى. العدد ١٩٥، صص ٢٨-٣١.

مطهری، مرتضی. (۱۳۶۱ش). گفتارهای معنوی. تهران: صدرا.

مطهری، مرتضی. (۱۳۷۰ش). انسان کامل. تهران: صدرا.

میرقادری، سیدفضل الله. (۱۳۸۵ش). شعر تأملی در ادبیات عربی معاصر. شیراز: نوید.